كلمةُ الأب البروفسور جورج حبيقة
رئيسِ جامعة الروح القدس الكسليك
في ذكرى الخمسين لتأسيس معهد الليتورجيا
وتكريم قدس الأباتي يوحنا تابت
قاعة يوحنا بولس الثاني، في ٢ أيار ٢٠١٩

باسم قدس الأب العام الأباتي نعمة الله الهاشم، الرئيس العام للرهبانية اللبنانية المارونية والرئيس الأعلى للجامعة، السامي الاحترام، يطيب لي أن أرحّب بحفاوة بنويّة بأبينا ورئيس كنيستنا غبطة البطريرك ونيافة الكردينال مار بشارة بطرس الراعي الكلي الطوبى، وبأصحاب السيادة والسعادة، وبالآباء المدبّرين العامين، وبالكهنة والرهبان والراهبات، وبأعضاء مجلس الجامعة والأساتذة، وخاصة بقدامى معهد الليتورجيا الأعزاء، وبكم جميعا الحاضرين هنا.

صاحبَ الغبطة والنيافة، إننا نجزلكم الشكر بامتنان عميق لأنكم تكرّمتم ووضعتم اليوبيلَ الذهبي لتأسيس معهد الليتورجيا وتكريمَ مؤسسِه قدسِ الأباتي يوحنا تابت، تحت رعايتكم وبحضوركم الشخصي لما لهذين الالتفاتتين من مدلولات ومضامين. كيف لنا أن ننسى يا صاحب الغبطة ما قلتموه في مناسبة سابقة عن ريادّية معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس الكسليك؟ أوجز كلمتكم البليغة بالآتي: بدون مساهمات معهد الليتورجيا المثرية والمتنوعة لكنا في عوز وفاقة روحيتين. فمعهد الليتورجيا هو الربيع الروحي في كنيستنا المارونية. هذا الكلام لا يمكن أن يصدر إلا عن أبوّة مُحِبّةٍ ورشيدة وحكيمة وعادلة وشاملة، لا تفرّق البتّة بين أولادها، بل تميّز بين المساهمات وتقدّرها حقّ التقدير، وتحفِّز على الإنتاجيّة المبدعة والخيّرة والمقدامة خدمة لكنيسة المسيح جمعاء.

جميعنا يعرف جيدا أن كلمة ليتورجيا الوافدةَ إلينا من لغة الإغريق، Leitos إي الشعب، وErgon أي عمل أو خدمة الشعب، تغطي بمعانيها الواسعة جميع طقوسيات يومياتنا، حتى تصل إلى تمام مضامينها في خدمة الجماعة المصلية لاحتفالية اللقاء مع الله واستضافته في قلوبها المتوسّلة. ليس ما يوازي العملَ الليتورجي مهابةً ومسؤولية، ابتداء بالكلمة والموسيقى، مرورا بالرموز والحركة وانتهاء بالخشوع والارتقاء. كل ما نتلقنه في اللاّهوت ونتذهّنه باهتمام وجوع ومشقة وصبر، نعيشه بفرح ودهشة وانخطاف في الليتورجيا.

إننا لا نزال نتذكر باعتزاز كيف استقبلت جامعة الروح القدس الكسليك كوكبة من رهبانها المجلين، عائدين من روما وباريس، في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، يسكنهم اندفاع مجنون إلى تجذير كل شيء في بداياتنا التأسيسية وجعله في آن واحد متآلفا مع تطلعاتنا الحاضرة. وكان على رأس جامعتنا آنذاك الأب العلامة إسطفان صقر، الذي كان يجمع العبقرية الفلسفية إلى الانسحاق الرهباني، وشموخ التفكير إلى

وضاعة العيش. هو من استقبل هذه الكوكبة الواعدة وأحاطها بعنايةٍ فائقة وحضّها على ركوب مغامرة التواصل مع المناهل الأساسية والانطلاق إلى آفاق التحديث والتأوين. وهكذا نرى قدس الأباتي يوحنا تابت يؤسس معهد الليتورجيا سنة ١٩٦٩، والأب لويس الحاج يؤسس معهد العلوم الموسيقية سنة ١٩٧٠ وقدس الأباتي بولس نعمان يؤسس معهد التاريخ سنة ١٩٧١. فما كان من الأباتي تابت إلا أن صمّم وخطّط ووضع خريطة طريق لورشة ليتورجية عارمة وهادفة. هو المتبحّر في جميع مفاصل طقسنا الماروني وطقوس الكنائس السريانية الشقيقة، والمتعطّش إلى بعث تراثاتنا الأنطاكية السريانية ونفض غبار التاريخ ومصائبه عن طقوسنا العريقة النائمة وسدّ ثغراتٍ وفجواتٍ في زمننا الطقسي من أجل عمل ليتورجي كامل ومتوازن، يرافقُ المسيحَ المخلّص منذ البشارة إلى العنصرة وولادة الكنيسة وعمل الروح. فكان زمن الميلاد بشْحيمته الكاملة، بالإضافة إلى زمن جديد، لم تعرفه كنيستنا في السابق، أوجده الأباتي تابت بشكل كامل، ألا وهو زمن الدنح. يضيق بنا الوقت الآن لتعداد أبحاثه بعد أطروحة الدكتوراه، من نشر أقدم شْحيمةٍ مارونية، مع هوامشَ تفسيريةٍ وتحليلية، إلى إصدار المجموعة الضخمة لـ "بيت غازو"، "بيت الكنز" الليتورجي الماروني، الذي وصل حتى الآن إلى ما يقارب الثلاثةَ والأربعين مجلّدا في اللسان العربي. إنها لإنتاجية مذهلة، لا يقوم بها إلا من هو مُتيّمٌ بعالم الروح وعاشقٌ للزمن الآتي.

إن الملفت للنظر في خلية النحل هذه إنما هو العمل الجماعي الجامعي. كثيرا ما نُنتقد كموارنة أننا لا نُتقن فنَّ العمل معا، بينما نُبدع في الإنجازات الفرديّة. قد يكون هذا القول صحيحا في جزء منه، غير أن النهضة الليتورجية التي شهِدتها جامعة الروح القدس الكسليك تقدم إثباتا بليغا معاكسا. لم تكن هذه الحركة لِتعطي الثمار التي نعرفها لولا شخصان استثنائيان، بالإضافة إلى محورية الأباتي تابت، الأب لويس الحاج والأب روفايل مطر. إن عبقرية الأب الحاج في العلوم الموسيقية وانتخابَه لثلاث مرات متتالية حتى مماته كرئيس لِلَجنة الموسيقى المقدسة في الفاتيكان، من قبل كبار الأدمغة الموسيقية الكاثوليكية في أوروبا، لخيرُ دليل على ذلك. إن ضبطه العلمي للألحان المارونية وإرجاعه إياها إلى تقشفّيتها الأولى منقّاةً من الإضافات الزخرفية اللاّحقة، كان إنجازا عظيما لم يسبقه إليه أحد. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عبقرية الأب روفايل مطر الشعرية، التي سجد سعيد عقل خاشعا في هيكلها، يوم تكريمه في جامعة الروح القدس الكسليك. لا نغالي البتة إن قلنا إنه كَنّارة الروح القدس ومار أفرام الماروني السّرياني الأنطاكي في القرن العشرين. والأب الحبيس يوحنا الخوند، الركيزة الثانية الأساسية في البناء الليتورجي الجديد، المتضلّع من الكتاب المقدس والمشبع بإلهامات الروح شعرا وروحانية، يقول ما معناه أن ما سكبه شعرا الأب روفايل مطر على أوزان سريانية لا تمتّ بأي صلة إلى علم العروض في اللّغة العربية، لهو إعجاز مدهش.

قدسَ الأباتي يوحنا تابت، كن واثقا أننا نتكرم جميعا في يوم تكريمك. ويعزّ علينا أن يعلق عن بعد على صدرك رئيسُ كنيستنا، صاحبُ الغبطة والنيافة، وسامَ مار مارون الرفيع، وأنت طريحُ الفراش في المستشفى، تُشرك آلامك بآلام المسيح الفادي. كم كنا وددنا أن نستقبلك في قاعة يوحنا بولس الثاني المتجلببةِ الحلّةَ

الجديدة القشيبة، بفضل سخاء وكرم الأستاذ شارل الحاج ابن أخ الأب لويس الحاج، والتي يدشّنها هذا المساء غبطةُ أبينا البطريرك في أول نشاط أكاديمي بعد إنجاز الأعمال فيها. قدسَ الأباتي تابت، أنت مرجع متألق في التحصيل العلمي والبحث الأكاديمي العنيد، والمثابرة والكدّ والجهاد وتحدي المصاعب وجعلها مدرجا لانطلاقات جديدة، والسعي الدؤوب إلى التجديد الليتورجي المستدام. جميعنا يتمنى لك الشفاءَ العاجل بنعم الرب المنتصر على معطوبية طبيعتنا البشرية، والعودةَ الميمونة إلى ليتورجيتك المفضّلة.

من جهة أخرى، أغتنم هذه المناسبةَ الكريمة لكي أعرب عن عميق امتناني لقدس الأب العام الأباتي نعمة الله الهاشم الرئيسِ الأعلى للجامعة، على العناية الكبيرة والمُحِبّة والمُحفِّزة التي يُحيط بها مؤسستَنا الجامعية. بفضل اهتمامه الأبوي ومتابعته الحكيمة والفطنة لشؤوننا، ورؤيويته الاستراتيجية الثاقبة، تَضاعف عملُنا وتعاظمت إنتاجيتُنا وحقّقت جامعتُنا مرتبةً مرموقة في التصنيفات العالمية ولا تنفكّ منطلقة في اندفاعة إرتقائية نحو الأعلى.

وكذلك، أسوق شكرا خالصا إلى الأب الدكتور يوسف طنوس، عميد كلية العلوم الدينية والمشرقية، على اهتمامه البين، هو كموسيقي ألمعي، بالشؤون الليتورجية كافة، واللّحنية منها. وأشكره بشكل خاص هو والأب الدكتور زياد صقر، مدير معهد الليتورجيا، على تصور هذا المؤتمر الدولي حول "التراث السرياني الشعري–الموسيقي، ريشاي قولي–بيت غازو"، وتحضيره في أدق التفاصيل ومتابعة التنفيذ بحرفية عالية. أعرف جيدا أنكما مؤتمنان على إرث ليتورجي زاخر وثمين. وإنني لواثق بأنكما تتمتعان بالطاقة والإرادة لإبقاء شعلة التنشئة والأبحاث الليتورجية متقدة كما كانت في البدايات الخصبة مع المؤسس قدس الأباتي يوحنا تابت.

وعندما أفكر بالنهضة الليتورجية الكسليكية، يحملني الفكر تلقائيا إلى من ساهم مساهمة فعّالة في هذه الورشة التحديثية، الأباتي عمانوئيل خوري في اختيار بعض من قراءات الآباء، والأب الدكتور عبده بدوي، مدير معهد الفن المقدس، في الأيقونات المارونية، والأب يوسف مخايل، في وضعه ألحانا جديدة من وحي سرياني لصلاة نصف الليل في اللغة السريانية، والأب جوزيف عبيد، في ميدان الطباعة، وغيرهم.

وفي ختام كلمتي، أوجه شكرا خالصا إلى جميع المحاضرين الذين لبّوا دعوتنا وأتوا من قريب ومن بعيد ومن وراءِ البحار. لا شكّ في أن محاضراتِكم ستغني أعمال مؤتمرنا وتُنوّرُ أذهان قارئيها. وكذلك إلى فريق من جوقة قاديشا بإدارة الأب يوسف طنوس، التي ستنشد بعد قليل بعضا من ألحاننا السريانية الضاربة في عمق الزمن. وأيضا إلى جميع وسائل الإعلام التي أظهرت اهتماما بالغا بهذا الحدث واستنفرت لتغطيته. وإلى كلّ واحد منكم هنا حاضرا، إذ بوجودكم تتجلى الليتورجيا بأبهى حللها، لأنها إن هي إلا خدمةُ الشعب في استضافةِ الله. وشكرا.